المحاضرة الثانية: البيئة والمحيط: المفهوم والأنواع

تمهيد: حظي موضوع البيئة باهتمام متصاعد من قبل الكثير من الحقول العلمية التي أخذت تسعى إلى فهم هذا المجال والتعمق في جوانبه المختلفة بالبحث والتفسير كاشفة عن جوانب وتفاصيل جد هامة بهذا الخصوص، بدأ من الاشتقاق اللغوي والاصطلاحي وصولا إلى الأنواع المختلفة للبيئة، وانتهاء بالإيكولوجيا الثقافية.

أولا. ماذا نقصد بالبيئة؟:

1. **لغة:** اختلفت الاجتهادات العلمية في تحديد مصطلح البيئة، ومرد ذلك هو تعدد وجهات النظر التي تستند إليها هذه الاجتهادات، ويعود الأصل اللغوي لكلمة البيئة في اللغة العربية إلى الفعل الماضي "باء" ومضارعه يبوء. وتشير معاجم اللغة العربية إلى أن هذا الفعل قد استخدم في أكثر من معنى، ولكن أشهر هذه المعاني هو ما كان يرجع إلى الفعل باء، بمعنى نزل وأقام، فالبيئة تعني في اللغة العربية المنزل، والمنزل المقصود هنا بالبيئة في الإطار اللغوي هو أوسع من المعنى المحدود الذي يطلق على المنزل بمعنى السكن، إذ هو يشمل ما حوله من المكان أيضا، فبيئة القوم هي موضع نزولهم من واد أو سفح.

أما في اللغة الانجليزية، فترجمة لفظة (**Environment**) هي **المحيط الطبيعي** (**Milieu Naturel**)، ويستخدم تعبير البيئة الطبيعية أحيانا بهذا المعنى. لقد عرف **هومبولدت** سنة 1848 فكرة المحيط الطبيعي التي كانت قد ظهرت في النصف الثاني للقرن الثامن عشر، فيما اقترحت عبارة "البيئوية" في سنة 1866 للإشارة إلى العلم الذي يدرس العلاقات بين الكائنات الحية والموضع الذي تعيش فيه.

أما في اللغة الفرنسية، فالفظة المستخدمة للدلالة على البيئة هي (**Environnement**) وهي مشتقة من الفعل (**Environner**)، والتي تعني: "**مجموعة الظروف الطبيعية للمكان من هواء وماء وأرض وكائنات الحية المحيطة بالإنسان التي تشمل الكائنات الحية وما تحتويه من موارد** ".

2. **اصطلاحا:** أما اصطلاحا، فقد عرفها مؤتمر **استكهولم** سنة 1972 البيئة بأنها: " **ذلك الرصيد من الموارد المائية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لإشباع الحاجات الإنسان وتطلعاته**". أما في

اجتماع **بلغراد** لسنة 1975، فقد عرفت البيئة بأنها: " **العلاقة الأساسية القائمة بين العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي والسياسي الذي صنعه الإنسان**".

ووفقا لهذين التعريفين، يتبين لنا أن البيئة ليست مجرد موارد يتجه إليها الإنسان ليستمد منها مقومات حياته، وإنما تشمل البيئة أيضا علاقة الإنسان بالإنسان والتي تنظمها المؤسسات الاجتماعية المختلفة والعادات والأخلاق والقيم والعلاقات المتبادلة. وبتالي فالبيئة هي كل ما يحيط بالإنسان من مكونات طبيعية ومشيدة وظروف اجتماعية وثقافية والتي تتفاعل مع الإنسان بشكل مباشر أو غير مباشر.

هذان التعريفان لا يعدان الوحيدان في هذا الإطار، حيث تعددت الاجتهادات البحثية ومحاولات تعريفها من طرف قطاع واسع من الباحثين على غرار:

- يرى **زين الدين عبد المقصود** أن البيئة بمفهومها العام هي: الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان مؤثرا ومتأثرا، وهذا الوسط قد يتسع ليشمل منطقة كبيرة جدا، كما قد يضيق ليتكون من منطقة صغيرة جدا قد لا تتعدى رقعة البيت الذي يسكن فيه.
- ويقصد بها الأستاذ الدكتور **عبد العزيز طريح شرف** بأنها: كل ما يحيط بالإنسان أو الحيوان أو النبات من مظاهر وعوامل تؤثر في نشأته وتطوره ومختلف مظاهر حياته، وهي بدورها ترتبط بحياة البشر في كل زمان ومكان، وخصوصا فيما يؤثر في هذه الحياة من سلبيات، أهمها الأخطار الصحية الناتجة عن التلوث بمختلف أشكاله ودرجاته في الهواء والماء والبحار والتربة والغذاء، وفي كل مناطق التجمعات البشرية بمختلف نشاطاتها الزراعية والرعوية والتعدينية والصناعية والعمرانية وغيرها.
- أما **أبو رية** فيعتبرها: كل ما هو خارج ذات الإنسان ويحيط به بشكل مباشر أو غير مباشر، وجميع النشاطات المؤثرة التي يستجيب لها فيدرك من خلالها وسائل الاتصال المختلفة المتوافرة لديه، ويشمل ذلك تراث الماضي من عادات وتقاليد وأعراف ومكتشفات الحاضر.

أما المحيط الطبيعي فيعد مفهوم ملتبس. فالواقع أنه لا يكاد يوجد (أو لم يعد يوجد) محيط طبيعي بمعنى موضع لم يغيره الإنسان بأية درجة كانت. بالمقابل تحافظ هذه الفكرة على كامل أهميتها عندما تفهم كمجمل العناصر الطبيعية – غير المعيشية (موضع طبيعي، مناخ، تضاريس، أرض، معادن)، والمعيشية (موضع حي: نباتات، حيوان) والتي تؤلف بيئة الإنسان، تؤثر فيه ويؤثر هو فيها، والتي تشارك إذا بالتفاعل معه في تنظيم وتحريك الكون والمجتمعات.

ثانيا. أنواع البيئة والمحيط: يؤكد المختصون بأنه ليس هناك اختلاف كبير بين الباحثين فيما يتعلق بمكونات البيئة من حيث المضمون وإن اختلفت المفردات أو اختلف عدد هذه المكونات كما سيتضح معنا في النماذج الأربعة (04) التالية:

1. التصنيف الأول: ويمكن في ضوئه تصنيف البيئة حسب أ. د. **راتب السعود** إلى قسمين وهما:

أ. **البيئة الطبيعية**: ويقصد بها كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر حية وغير حية، والتي ليس له أي دور أو دخل في وجودها. والتي تتمثل على وجه التحديد في مجموعة العناصر التالية: البنية، التضاريس، المناخ والتربية والنباتات والحيوانات. وهي البيئة التي تختلف من منطقة إلى أخرى تبعا لنوعية المعطيات المكونة لها.

ب. **البيئة البشرية**: ويقصد بها الإنسان وإنجازاته التي أوجدها داخل بيئته الطبيعية بحيث أصبحت هذه المعطيات البشرية المتباينة مجالا لتقسيم البيئة البشرية إلى أنماط وأنواع مختلفة، فالإنسان من حيث هو ظاهرة بشرية يتفاوت من بيئة لأخرى من حيث عدده وكثافته وسلالته ودرجة تحضره وتفوقه العلمي مما يؤدي إلى تباين البيئات البشرية. ويميل في هذا الإطار بعض الباحثين إلى تقسيم البيئة البشرية إلى نوعين مختلفين وهما:

- البيئة الاجتماعية: هي ذلك الجزء من البيئة البشرية الذي يتكون من الأفراد والجماعات في تفاعلهم، وكذلك التوقعات الاجتماعية، وأنماط التنظيم الاجتماعي، وجميع مظاهر المجتمع الأخرى.
- البيئة الثقافية: ونعني بها الوسط الذي أوجده الإنسان لنفسه بما فيه من منتجات مادية وغير مادية، وذلك في إطار محاولته الدائمة للسيطرة على بيئته الطبيعية، وخلق الظروف الملائمة لوجوده واستمراره فيها، والتي تتضمن الأنماط الظاهرة والباطنة للسلوك المكتسب عن طريق الرموز، والذي يتكون في مجتمع معين من عادات وتقاليد وأعراف ومعتقدات وفنون... إلخ.

2. النموذج الثاني: وهو لا يختلف كثيرا عن النموذج الأول، ويرى أن للبيئة شقين وهما:

- **البيئة الطبيعية**: وتتألف من الأرض وما عليها وما حولها من الماء والهواء، وما ينمو عليها من نبات وضروب الحيوان وغيرهما نموا ووجودا طبيعيا سابقا على تدخل الإنسان فيها وتأثيره المقصود وغير المقصود. كما يقع ضمن نطاق البيئة الطبيعية كذلك كل من التربة والمعادن ومصادر الطاقة التي أتاحها الله للإنسان ليحصل منها على مقومات حياته.
- **البيئة المشيدة**: وتمثل البنية الأساسية المادية التي أنشأها الإنسان لنفسه، والمتضمنة لكافة المكونات التي أنشأها ساكنو البيئة الطبيعية من مباني وتجهيزات ومزارع وتجهيزات ومشاريع صناعية وطرق ومواصلات

ومطارات... إلخ، إضافة إلى مختلف أشكال النظم الاجتماعية من عادات وتقاليد وأعراف وأنماط سلوكية وثقافية ومعتقدات تنظم العلاقة بين الناس.

3. **النموذج الثالث**: ويقدم البيئة في صورة ثلاثة (03) مكونات وهي:

- **المحيط الحيوي**: ويمثل بيئة الحياة الأصلية أو الفطرية.
- **المحيط المصنوع (التكنولوجي)**: وهو يتألف من كافة ما شيده الإنسان في البيئة الطبيعية باستخدام مكوناتها، من: مستوطنات بشرية، مراكز صناعية، الطرق المواصلات، المشاريع الزراعية والآلات وغير ذلك.
- **المحيط الاجتماعي**: وهو المنظومة التي تدير في إطارها الجماعة البشرية شؤونها الحياتية الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وهذه المنظومات الثلاثة تتفاعل في ما بينها مؤثرة ومتأثرة.

4. **النموذج الرابع**: ويرى أصحابه أن للبيئة أربعة (04) مكونات تتفاعل فيما بينها تأثيرا وتأثرا وهي:

- **الطبيعة**: وتمثل الأرض وما عليها من ماء وما حولها من هواء وما ينمو عليها من نبات وما تحتضنه من حيوان، كما تتضمن الموارد المتاحة للإنسان للحصول على حاجاته من غذاء وكساء ودواء ومأوى ومواد مختلفة.
- **السكان**: وهم مجموع الأفراد القاطنين على الأرض في عصر ما، بوصفهم المكون المؤثر والمغير في البيئة الطبيعية من أجل حياة مريحة تليق بكرامة الحياة البشرية.
- **التنظيم الاجتماعي**: وهو الأنشطة التي يمارسها السكان في علاقتهم مع الوسط المحيط بهم، والذي يحتوي أوجه حياتهم ومعيشتهم بكل ما فيها من نظم وتنظيمات للعلاقات وإشباع للحاجات ومعايشة المشكلات.
- **التكنولوجيا**: ويقصد بها مختلف أنواع التقنيات التي استحدثها الإنسان، والتي مكنته من استثمار موارد البيئة لتلبية حاجاته وتطلعاته.

ثالثا. الإيكولوجيا الثقافية: ويطلق عليها البعض أيضا مسمى الأنثروبولوجيا الثقافية، وهي تعد أحد مجالات البحث في حقل الأنثروبولوجيا. حيث ترتكز جهودها على بحث وفهم العلاقة بين السكان والبيئة التي يعيشون فيها، وتحاول تقديم تفسيرات مادية للمجتمع الإنساني والثقافي كنتاج للتكيف مع ظروف بيئية معينة.

وتبرز أهمية المدخل الثقافي في كيفية تعامل الإنسان مع البيئة والسيطرة عليها، وكذلك دور البيئة في تشكيل الثقافة وتحديد السلوك الثقافي في المأكل والمشرب والملبس والعادات والمعتقد الشعبي، حيث يحرص المدخل الثقافي على إبراز العلاقة التفاعلية بين الثقافة والبيئة.

هذا المدخل يفيدنا أيضا في توضيح وفهم دور الثقافة في ممارسة الأنشطة البشرية المختلفة، ولماذا وجود أنشطة متعددة ومختلفة في بيئة ذات خصائص طبيعية متشابهة، ولماذا انتشار نشاط واحد في بيئات مختلفة رغم الاختلاف في الخصائص الفيزيائية لها في المنطقة.

ويذهب **أورلوف Orlove** في عرض له حول هذا الميدان جرى تقديمه سنة 1980، إلى أن الاهتمامات الأساسية للإيكولوجية الثقافية تدور حول دراسة علاقات المواءمة بين البيئة والديناميات السكانية، حيث تكون هذه الدراسات إما تتبعية أو متزامنة، ويمكن أن تركز إما على دراسة جماعة واحدة أو مقارنة جماعات مختلفة وبيئات مختلفة. ويتفق الأنثروبولوجيون الإيكولوجيون على اعتبار الثقافات الإنسانية نظما للتكيف، حيث تأثرت هذه النظرة بالبحوث الإيكولوجية وبتطورات علمية مختلفة.

وفي المدرسة الحديثة للأنثروبولوجيا الثقافية برزت على نحو خاص اسهامات عدد من العلماء يتقدمهم كل من: هاريس **H. Harris**، & **فايدا P.Vayda** & **رابابورت R.RAPAPORT**. وقد أكد كل هؤلاء العلماء ومن تأثر بهم، أن الضغط السكاني يمثل آلية أساسية لإحداث التغير في تكيف السكان مع بيئاتهم، كما استخدموا فكرة القدرة المحتملة (الكامنة) في تحديد إمكانيات الكثافة السكانية في بيئة ذات مستوى معين من التقدم التكنولوجي. وقد لوحظ في ثنايا نقد هذه النظريات أن التوازن مع البيئة لا يتحقق من جانب كافة الجماعات السكانية، فالبعض قد يتجاوز قدرته المحتملة ويعدل من بيئته مع تباين النتائج التاريخية في ذلك، أو بعبارة أدق لا توجد آلية أوتوماتيكية للتكيف داخل كل ثقافة إنسانية.

ومن الانتقادات الأخرى التي وجهت إلى الحتمية الإيكولوجية أو النزعة المادية السوقية، ذهب معارضو تلك النزعة إلى أن للثقافات والمجتمعات منطقها ومبادئها التنظيمية الخاصة التي لا يمكن تخفيضها إلى مجرد عمليات للتكيف مع الظروف البيئية.

كما أورد **أورلوف Orlove** انتقادات أخرى، منها صعوبة تحديد المقصود بالوحدة السكانية، والإخفاق في تحديد طبيعة علاقة العوامل الإيكولوجية أو تأثيرها الحتمي على الدوافع والقرارات الإنسانية. وكثيرا ما قيل في هذا الصدد أيضا أن بعض الآثار الإيكولوجية غير المقصودة على النظم الاجتماعية ليست في الحقيقة تفسيرا لها.

وتتبنى النماذج الفكرية الجديدة في الإيكولوجية الثقافية أفكار **استراتيجية التكيف** وصنع القرار من أجل إدماج مستوى السلوك الفردي في النظرية السكانية. حيث أدركت هذه النماذج أيضا أن السكان لا يشتركون جميعا في نفس الأهداف أو السلوك، بل إنه يمكن أن تثور صراعات ومناقشات داخل الوحدات السكانية ذاتها. كما أعادت هذه

النماذج تعريف مفهوم الوحدة السكانية، كما شكلت الوحدات الصغرى من الجماعات والأفراد وكذلك الوحدات الأكبر كالأقاليم جزءا من تحليلاتهم.

رابعا. المراجع المستخدمة في المحاضرة:

1. جمعة بلعيد: "واقع الوضع البيئي في المدينة الجديدة: علي منجلي"، في: **مجلة الباحث الاجتماعي**، العدد 14، 2018.

2. محمد الجوهري: **المفاهيم الأساسية في الأنثروبولوجيا (مدخل لعلم الإنسان)**، القاهرة، 2008.